التربية والتهذيب والتعليم

درس للامهات

عن الروسية

خرجت سيدة للنزهة مع ولد لها في الرابع الثامن من عمره فالتقت باحدى صديقاتها فتحادثتا هنيهة ولما همت الصديقة بالذهاب سألت الولد — اتريد يا بطرس ان ابلغ ماري سلامك ؟ فاجابها ببساطة — لا اريد) فقالت — لا تريد ؟ لم ذلك ؟ فقال — لانها مضجرة لا تعجبني) فاحمرّت الوالدة وصديقتها اما بطرس فلم يبال بما بدا في وجهيهما من الانقلاب وظل مرتاح الضمير ساكن البال لا يدرك ولا يشعر انه جعل موقف والدته حرجاً فاسرعت الصديقتان بالوداع وافترقتا

فتابعت والدة بطرس النزهة وهي مشتغلة عما حولها بحلّ هذه المعضلة : كيف يجب ان تعلم ولدها ليكون مخلصاً في كلامه حذراً في احكامه وكيف يجب ان تجمع بين هاتين الخصلتين · ليس الاخلاص والصدق بعسيرين في سن الحداثة · قل ما تعرفه وتفكر وتشعر به ولكن كالك مرآة تعكس جميع ما في داخلك وليس هذا بعسير على من له ثماني سنوات اذا نشأ على هذا النوع من التربية ولكنه بهذا الاخلاص يمسّ احساسات غيره ويظهر للناس فظاً فكيف يجب ان تعلمه مراعاة احساسات غيره مع الاخلاص في كلامه ؟ : وكانت امه تعرف ان الرياء نقيصة مضادة للاخلاص اهمّ صفة في الولد الصادق وان التظاهر بمشاطرة الغير عواطفهم كالصدأ يأكل فولاذ السجايا الحسنة

ولكن قلة اللطف وقسوة المجاهرة ان هي الا صفة سلبية للنفس المخلصة الصادقة وكثيراً ما تورث الاخرين حزناً عظيماً · فاذاً لا بد من تعليم بطرس ان يراعي شعور غيره كما تريد امه ان يعاملوه ولكن كيف يتسنى لها ذلك ؟ اخيراً قالت اعلامها — ارأيت يابطرس كيف احمرّت والدة ماري ؟)

— لم انتبه الى ذلك يا امي ولماذا احمرّت ؟ — لانك اسأت بما قلته عن بنتها) — ما الذي قلته ؟) — قلت انها مضجرة) — ولكن هذا صحيح) — ان صحة كلامك لا يجب ان

تكون دافعاً لمس شعور الاخرين . الا تعلم ان الام تحب ابنتها و يشق عليها ان تراها مكروهة ؟) — لماذا يشق عليها ؟ واي علاقة لها بذلك ؟ ولم ساءها كلامي ؟

فاستغربت والدته هذه السؤالات وكانت تؤمل ان يشعر بما سببه لها من الخجل عند كلامه وتتوصل معه الى الحكم بضرورة تجنب مثل هذه الحوادث ولكن سؤاله خيب امالها لانه دلّ على عدم شعوره بحزن الوالدة اذا ذموا ابنها وجعلت تفكر كيف يجب ان تفهمه بطريقة تحرك فيه هذا الشعور فرأت ان الواسطة الوحيدة هي ان يجعل نفسه في مثل هذا الموقف لاعتقادها بفاعلية هذا المبدأ في سائر الازمنة : ضع نفسك موضع غيرك واحكم. فقالت — احب ابناك كثيراً يا بطرس ؟) — وهل عندك ريب في ذلك يا اماه ؟) — ما تفعل يا ترى لو قال لك احد ان ابناك مضجر شرير فظ ؟) — لا اهتم لقوله ابداً لانه لا يعرف ابني اكثر مني) — لنفرض انه عاشره واختبره او لنفرض ان ابناك معلم وانت واصدقاؤك تلاميذ)—لا ريب في ان يكون ابي اذ ذاك مضجراً شأن غيره من المعلمين ولا يبعد ان اكون على رأيهم من هذا القبيل)—واذا فرضنا انك خالفت ارفاقك في رأيهم اتعود الى مجالستهم واللعب معهم) — ما المانع من ذلك وانا اجد فيه مسرة عظيمة وهل من اللازم ان يحب الجميع ابي

فشعرت الام انها لن تنال مرادها بهذه الواسطة وان ابنها لا يعتبر اباه جزءا من ذاته وساءها ذلك لان ولدها يؤلف النقطة الحساسة فيها فاذا كرهه احد فكأنه فعل ذلك معها اما هو فلا يشعر بمثل ذلك فيها اذا بدا من احد نفور منهما او من والده ولا يهمه الا ما في نفسه ورأت ان لا بد من معرفة ما في داخله لان الانسان لا يصرخ عندما تكسر رجل غيره ولكنه يصرخ حينما تكسر رجله . ان الاختبار الذاتي احسن واسطة لادراك اعمال الغير فاذا اثبتت احدنا نائبة يشعر عند ذلك بمصاب الغير فمن هذا يظهر ان مصائب الحياة احسن مهذب للناس ولكن المرأة لا تعمد الى اذية ابنها لتجعله يشعر بمصائب الغير فاجتهدت والدة بطرس كثيراً لتذكر حادثاً من حياة ابنها يساعدها على افهام ولدها هذا الامر فقالت له

— اتذكر البناية التي اقمتها من زمن قريب) — نعم اذكرها ولا تزال قائمة في عرقي) — هل تراها جميلة) — نعم جداً) — وما تفعل اذا قال مثال لك انها غير جميلة) فضحك بطرس ضحكة عالية من كلام امه وقال — يظهر انك لا تعرفين شيئاً . ان مثال معجب بها اكثر مني) — لنفرض انه يعدها قبيحة فما تفعل) — اقول له جرب واقبل احسن منها) — وهل لا يسوءك قوله ؟)— مطلقاً ولم تزعجني انه يسوءني

فعلمت الوالدة انها لم تهتد الى الطريق بعد لكنها ادركت ان عدم مبالاة ولدها بكلام الغير عنه لا يخلو من المنفعة رغم ما فيه من الضرر لانه يدل عَلَى ان الحق في نظره مفضل عَلَى كل شيء وان جراثيم الكبرياء لم تتسرب الى قلبه فلا يستاء اذا تكلم الغير عنه بالشر . وانه خال من محبة المجد الفارغة التي تدل عَلَى ضعف الانسان . افلا تكون هذه الصفة من افضل الصفات فتقيه عثرات كثيرة في المستقبل؟ ولعله لم يلاحظ هذه العاطفة في ماري وغيرها وسالت نفسها هل هذا هو سبب جمود نفسه الخارجي . ولما وصلت الى هذه النتيجة حثت نفسها عَلَى سواء السبيل وسرت كثيراً لانها وجدت ما يبرر بطرس من سوء صنيعه وقالت في نفسها ان الذنب ذنبنا لان اخلاقنا قد فسدت من المراءاة والتظاهر بالصداقة ولقد افسد الناس بعضهم بعضاً فهم يخافون كل ما يقال فيهم علناً وما « معرفة الحياة » الموهومة والمبالغة في التحفظ الا زهرة نبتت داخل المنزل ومشهد اصطناعي لا محل له في الحياة الحرة المطلقة ولو اعتاد الناس اثناء معاملاتهم بعضهم مع بعض ان يجاهروا بافكارهم بدون رياء وبوضوح كما يجري بين الصغار لاصبح التعارف في الشعور زائداً لا محل له ولم يبق لها الا ان تعرف اذا كان صدق بطرس نتيجة حب الحقيقة ام يقصد منه جرح انانية الغير لان ميزان الحكم في المقاصد والنيات لا في ما ينجم عن مساس شعور الآخرين واستنتجت انه لا يجب ان يعيقنا حب الآخرين او نفورهم ولا ان نخفي الحقيقة او نلطفها مهما ساءت الغير فرأت ابنها مصيباً جداً وانه لا حق لوالدة ماري ان تحمر من الخجل واحمرارها هذا يدل عَلَى انها لا تحب الحقيقة بل تحب المجد ولو قالت ماري عن بطرس ما قاله هو عنها . . . . . وانقطع مجرى افكارها عند هذا الفكر الذي انالها متسلسلاً من الافكار السابقة ورن في اذنها صوت ماري « انني لا احب بطرس فهو فتى مضجر » واخترق اعماق قلبها . فنظرت الى ابنها لترى هل تنطبق عليه كلمات ماري الموهومة فشعرت بنفور منها وذهب كل ما اتخذته لتبريره ادراج الرياح

وصرفت الاسبوع التالي تفكر في حل هذه المسألة المهمة وهي : ماذا يجب ان تفضل الاخلاص بقطع النظر عما يسببه من مساس الشعور او المراءاة مع مخالفة الحقيقة فكانت تذكر عند ذلك بطرس واخلاصه وعدم اهتمامه باخلاص الناس ثم ترجع فتذكر رقة احساسها واستياءها عندما يكون الناس مخلصين نحوها مجاهرين بنفورهم من ابنها وكما ارادت الاختيار الى رأي بطرس كان اختيارها يحول دون ذلك وعزمت ان لا تفكر في حل هذه المعضلة تاركة حلها للظروف لانه كثيراً ما يحدث ان تساعد الظروف الانسان في حل ما

يصعب على عقله ادراكه ولم يحب امامها هذه المرة اذ علمها ان ابن اختها يزورها قريباً فجفي عندها بضعة ايام بسبب مرض والدته وكان هذا الصبي مقارباً لابنها في السن . فسر بطرس كثيراً بالقاء المنتظر لانه لم يكن له سوى اخت تبلغ الخمس سنوات فصار يعلل نفسه بصرف النهار بالالعاب مع الولد الذي سيعيش معه واستسلم للاوهام ولانه لم يكن بينهما سابق معرفة اصبح اسم جيرار في مدة اسابيع علماً يخفق فوق باخرة تحمل لبطرس جميع انواع المسرات

ولكن ما اعظم خيبة امله ان جيرار ما كان يشخن الا ما يديه هو نفسه من الاراء ولم يعجبه الا ما يصنعه يديه ولم يسره الا ما يبتكره بنفسه واذا ابتكر بطرس شيئاً جديداً كان يقبحه واذا فعل امراً كان يظهر له عيوباً كثيرة فيه واذا اعجب بشيء كان يظهر سأمته من هذا الشيء . وكان الوقت الذي صرفه بطرس مع جيرار نحو؟ عذابات واهانات وكثيراً ما كان يحدث بينهما جدال يودي الى خصام فتتجنبان يدعو جيرار بطرس جبان واحمق وكان ينتهي الامر بانصراف بطرس الى والدته والدموع مل، عينيه

كان جيرار ولداً محب الذات لا يراعي عواطف غيره ولا يعرف باطفة المساواة فيستخدم الغير لمنافعه ويسود عليهم وكان هذا الدرس كثير الفائدة لبطرس ووالدته لانهما وجدا هذا الولد يتكلم ويفعل جميع ما يريده بحرية جارحة ولم يزدر جيرار بابن خالته ويخالفه لانه يلتذ بعذابه بل لان عواطف نفسه كانت لديه اهم من كل شيء فلا لوم عليه بما اظهره له من الاحتقار وقد سرت الوالدة وابنها وشكرا الظروف لسفر هذا الكائن المخلص عنهما وادركا عند ذلك خطأ بطرس في حكمه على ماري . وفهما ان ما قاله لم يكن ناتجاً عن اخلاص بل عن عدم مشاطرته الغير شعورهم وعدم فهمه الناس المحيطين به فلو نظر الى ماري باخلاص وشعور اكثر من ذي قبل ولم يراع عواطفه فقط بل وعواطف ماري و بالاجمال لو وضع نفسه موضعها وحكم على عملها لما فاه بما فاه به فلا بد اذا من تقدير المحيطين به قدرهم وان لا يرى القبيح فيهم فقط بل والجيد ايضاً . ولم يصل الى هذا الا بما احتمله من العذاب رغماً عما بذلته والدته من الاتعاب لايصاله الى هذه الغاية وكان ينقص بطرس مما هو عليه من الاخلاص هذه الصفة ولكنه اكتسبها بعد سفر جيرار بدون ان يفقد شيئاً من اخلاصه

وكذلك لم يكن نقص جيرار مسبباً عن الاخلاص او عن محبة الذات بل عن عدم مقدرته على تقدير اعمال بطرس حتى انه لم يظن ان لها بعض القيمة بل كان يعدها كالعدم